

اتجاهات سياسية في القرآن الكريم: تفهيم القرآن أنموذجاً الدكتور محمد علي حسين¹

ملخص البحث: السياسة هي التي تتعلق بأمر الناس وملوكم ونظام الحكومة والعلاقة بينهم، وأن القرآن الكريم قد نزل لنشأة العلاقة بين الله وعباده ولإصلاح القضايا التي تدور بينهم. فعالج القرآن الكريم هذه الأمور والقضايا التي كانت صلتها بإصلاح ما بينهم من أمور الدنيا والآخرة من إقامة الدين الإلهي وتنفيذ الشريعة الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم تحقيقاً لمقاصدها الأساسية التي أسس لأجلها الرسول صلى الله عليه وسلم دولة إسلامية، فأقام العدل والمواصاة بين أمته، وأسس ضوابط وقوانين لأداء حقوق الله تعالى وعباده، كما بين مسئولياتهم وواجباتهم مفصلاً، فتحدث القرآن الكريم عنها بأنها لم يترك شيئاً إلا أنه قام ببيانه، فيقول: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} [سورة الأنعام: 38] وفيه تبيان لكل شيء، فيقول سبحانه وتعالى: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} [سورة النحل: 89] وقد ناقش هذه الأمور الأستاذ المودودي في تفسيره "تفهيم القرآن" في ضوء الاتجاهات السياسية، وأجاد في بيانها، فتلقى معظم القراء بالقبول، وقد عالج الباحث في هذا البحث المتواضع هذه الاتجاهات التي قام بها الأستاذ المودودي رحمه الله في تفسيره.

المقدمة

الحمد لله رب العلمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد: فهذا البحث عبارة عن إبراز بعض الجوانب السياسية في تفسير "تفهيم القرآن" للسيد أبي الأعلى المودودي الذي كان مفكراً سياسياً إسلامياً ومجدداً للمجتمع، فاتضح الاتجاهات السياسية في تفسيره طبعاً.

مفهوم السياسة

السياسة أمر هام، قام بمناقشتها العلماء المفكرون قديماً وحديثاً، وعرفوها بأقوال شتى:

يقول الدكتور مصلح: السياسة " Politics " الصراع على السلطة، التحديد السلطوي للقيام، وهو عمل يتم باسم الدولة أو الحكومة¹ ويقول أيضاً: "هي الدراسة العلمية للسلوك السياسي (أو الحكم) والعمليات التي

¹الأستاذ المساعد، قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ

ينطوي عليها السلوك الإنساني ويتم من خلالها إنهاء الصراع بين "الخير العام" ومصالح الجماعات".²
وللسياسة في اللغة معنيان:

الأول: فعل السائس، وهو من يقوم على الدواب وپروضها، يقال: ساس الدابة يسوسها سياسة.

الثاني: القيام على الشيء بما يصلحه. يقال: ساس الأمر سياسة: إذا دبره. وساس الوالي الرعية: أمرهم ونهاهم وتولى قيادتهم. وعلى ذلك فإن السياسة في اللغة تدل على التدبير والإصلاح والتربية.³ والمعنى الثاني هو المراد عندنا والمناسب بالبحث.

وقال الزبيدي في تاج العروس: "السياسة مشتقة من مادة (سوس)، والسوس: الرئاسة، يقال: ساسوهم سوسا، وإذا رأسوه قيل: سوسوه وأساسوه، وساس الأمر سياسة: قام به، والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه، ورجل ساس من قومه ساسة وسواس، ومن المجاز: سست الرعية سياسة بالكسر: أمرتها ونهيتها".⁴

وتأتي السياسة في الاصطلاح بمعنى عام: وهو ما يتصل بالدولة والسلطة. فيقال: هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والأجل، وتدبير أمورهم.⁵

والعلماء قد استخدموا كلمة السياسة بمعنى الأحكام السلطانية، فأصبحت السياسة أساس الحكم والحكومة، ولذلك سميت أفعال رؤساء الدول وما يتصل بالسلطة "سياسة".⁶

وعلى ذلك فإن علم السياسة: "هو العلم الذي يعرف منه أنواع الرئاسات السياسات الاجتماعية والمدنية، وأحوالها: من أحوال السلاطين والملوك والأمراء وأهل الاحتساب والقضاء والعلماء وزعماء الأموال ووكلاء بيت المال، ومن يجري مجراهم".⁷

فقد رأينا من خلال هذه التعبيرات أن كلمة "السياسة" تتعلق بأمور الولاية والحكومة وسلطة الدولة، والقضاء كما تشمل على أحوال السلاطين والأمراء، سواء كان في داخل البلاد أو في خارجها.

قد اشتمل القرآن الكريم قضايا سياسية كثيرة هامة تعد من قواعد النظام السياسي، ومن تلك القضايا مثلا إقامة الخلافة والشورى والعدل والحريات والمساواة والحقوق، وهي لا تتحقق إلا بسلطة سياسية.

هذا، والقرآن الكريم يرشد المسلمين إلى طريقة التعامل مع المؤمنين وغيرهم، فمرة يوجههم للتصعيد العسكري كما نرى في سورة محمد التي

هي إعلان صريح لحرب من الله ورسوله والمؤمنين ضد الكفار،⁸ وتارة يرشدهم إلى تهدئة العمل العسكري وتصعيد العمل السياسي، كما نجد في سورة الفتح، وهي تعبير عن مرحلة تتطلب شيئا من العمل الهادئ والتخطيط السياسي، وهذا الاتجاه قد اتضح في صلح الحديبية مع أهل مكة.⁹

موقف الإسلام من السياسة

السياسة جزء لازم لهذا الدين لا يفصل من التشريع الإسلامي، فهي التي تحقق العدالة والصلاح، والقسط الذي هو المقصد الهام وراء وجود الكيان البشري وإرسال الرسل عليهم السلام، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: 25]. واتفق معظم المفسرين على أن المراد من الميزان إنما هو العدل، ومن ذلك ما نصّه الإمام ابن كثير في تفسير كلمة "الميزان" قائلا: هو العدل، قال مجاهد وقتادة وغيرهما: هو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للأراء السقيمة¹⁰.

وهذا الميزان الذي نزل من عند الله في جميع الرسالة هو الضمان الوحيد لحماية البشرية كافة من الوقوع في الظلم والطغيان، وبدون هذا الميزان الإلهي لا يهتدي الناس إلى العدل والقسط أبدا. فالاحتكام إلى الميزان المذكور وإلى العدل والإنصاف الذي سبق ذكره، كان هو المبتغى الذي من أجله بعث الله رسله مبشرين ومنذرين، وهو القصد الذي من أجله جعل خليفته على الأرض لعمارته، فقال تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [سورة البقرة: 30].

كما نرى في القرآن الكريم أحكاما لا يمكن تطبيقها بدون سلطة حاكمة، ومن ذلك إقامة القصاص، وحد السرقة، وعقوبة الزنا، وأخذ أموال الزكاة من أصحابها وتوزيعها بين الفقراء، وإجراء الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وما يترتب منه من أحكام غنائم وأسرى، ومعاهدات، وطريقة التعامل مع الكفار وأهل الذمة، فلذا نرى التقارب بين القرآن الكريم وبين الأوضاع السياسية كثيرا، حتى أنه استخدم كثيرا من المصطلحات التي تدل على معنى السياسة، واهتم بها كثيرا، مثل الملك والحكم والسلطة والخلافة والبيعة والشورى والعدل والظلم وما إلى ذلك من المفاهيم، فلننظر إلى ذلك في السطور الآتية:

الملك: وقد ذكر في القرآن الكريم هذا المصطلح في مواضع كثيرة، ويقول الراغب الأصفهاني في كتابه "المفردات في غريب القرآن": الملك هو المتصرف في الأمر والنهي في الجمهور، وذلك يختص بسياسة الناطقين، ولهذا يقال: ملك الناس، ولا يقال ملك الأشياء، وقال أيضا: (الملك اسم لكل من يملك السياسة¹¹).

ويقول ابن خلدون في مقدمته: "وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال، ويبعث البعوث، ويحمي الثغور، ولا تكون فوق يده يد قاهرة، وهذا معنى المَلِك"¹².

وقد ذكر القرآن الكريم كلمة "الملك" في سورة البقرة: { وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة: 247]. فكان هذا الاصطفاء الإلهي لهذا المنصب الجليل بفضل علم وبفضل قوة، فقرر عندهم أي بني إسرائيل كما يقول الإمام الماتريدي رحمه الله تعالى: "إن الملك يحتاج إلى فضل علم وفضل قوة، ثم يحتمل قوله: {بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ} علم الحرب والقتال، ويحتمل على الأشياء الأخرى على حفظ الرعية وغيره"¹³.

وإذا توقفنا عند قصة سليمان عليه السلام نرى أن ظاهرة الملك بارزة فيها مما تبرز من ظواهر النبوة، ومن ذلك قوله تعالى الذي دعا به عليه السلام: { رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } [ص: 35] وقد استجاب الله جل وعلا لدعائه، فوهب له ملكا لا نجد له مثالا قبله ولا بعده، قال تعالى: { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } [النمل: 16، 17]، ونرى الاعتراف لملكه على لسان ملكة سبا كما نقل القرآن الكريم: { قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ }

[النمل: 34]، ومثلها من الآيات الكثيرة التي تتحدث عن هذا المنصب السياسي العظيم ودوره في تنظيم شؤون الدولة.

الحكم: أصل الحكم في اللغة المنع، والعرب تقول: حكمت وأحكمت وحكمت بمعنى منعت ورددت، ويقال للحاكم بين الناس حاكم، لأنه يمنع الظالم من الظلم، والحكم: القضاء وجمعه أحكام.¹⁴ الحكم أمر أساسي للعملية السياسية، وقد ذكر القرآن الكريم هذا وما يشق منه أكثر من تسعين مرة، ومن ذلك قال تعالى: { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النساء: 58] وقال { يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ } [المائدة: 95]، وقال تعالى: { إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [سورة يوسف: 67] ومثلها آيات كثيرة توضح جانب اهتمام القرآن بهذا المصطلح الذي يتعلق بالسياسة تعلقا وثيقا، ولا يمكن الحكم والحكومة بعيدا عن السياسة طبعا.

البيعة: إيجاب البيع على المبايعة والطاعة، وبايعه أي عاهده، يقال: تبايعوا على الأمر أي تعاهدوا عليه، وهو عبارة عن المعاهدة والمعاهدة كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته.¹⁵ وقال عنها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: معاهدة أمير المؤمنين على النصر والطاعة.¹⁶ وهذا المصطلح أيضا يرتبط بالسياسة ارتباطا قويا، لأن الحكام والمحكومين يعتمدون عليها في أداء واجباتهم وحقوقهم فيما بينهم، مصدر كبير من الأنظمة السياسية التي تنظم العلاقة بين الطرفين، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الكلمة في سورة الفتح: { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَن يَكْفُرْ } [سورة الفتح: 10].

الخلافة: معناها الإمارة، ومنها الخليفة هو السلطان الأعظم، والخليفة: الذي يستخلف ممن قبله، والجمع خلائف وخلفاء، ويقال: خلف فلان فلانا إذا كان خليفة، ويقال: خلفه في قومه خلافة، وخلفته إذا جئت بعده، وخلائف الأرض: يخلف بعضهم بعضا.¹⁷ وهذا المصطلح من أهم المصطلحات القرآنية التي تتعلق بالنظام السياسي، وهي التي تستخدم في معنى إقامة الدولة الإسلامية، وقد وردت مشتقات هذه الكلمة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، مثلا قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي

جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً { [سورة البقرة: 30] وقال تعالى: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ { [سورة ص: 26] وقال: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ { [سورة النمل: 62].

فالناس خلفاء الله في الأرض، لقد أوجدهم الله لحمل لواء التوحيد، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإزالة الفساد من الأرض ثم إقامة العدل والقسط في محله، وهذا كله لا يمكن إلا بسطة إسلامية.

اتجاهات سياسية في تفسير "تفهم القرآن"

إن السيد أبا الأعلى المودودي رحمه الله¹⁸ فسر القرآن الكريم من نظرية إصلاحية لا تكون محصوراً في إطار عقدي أو خلقي أو بعض طقوس دينية فقط، بل هي تشمل جميع نواحي الحياة البشرية، وهو يرى أن الإصلاح والتزكية لا يمكن بمجرد النصائح والإرشادات والفتاوى من قبل العلماء، وإنما هذه المحاولات والجهود تأتي بنتيجة فعالة إذا كانت تحت حاكم عادل يحكم بين الناس بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فلذا نرى أنه يبرز أهمية الاتجاه السياسي ومعالجته في تفسيره "تفهم القرآن"، وفي هذا الموضوع أمثلة كثيرة في تفسيره، منها:

أولاً: دعوة انقلاب سياسي

إن الأستاذ المودودي رحمه الله يتحدث عن دعوة نبي الله صالح عليه السلام التي قدمها أمام قومه، ويذكر لنا كلامه الذي قاله لقومه، وذلك من خلال تفسيره قوله تعالى: {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [سورة الشعراء: 151-152] "يعني اتركوا اتباع النظام السياسي والاجتماعي الموجود في مجتمعكم، لأنه صادر عن عقل السادة والحكام الذين لا يتبعون أي قانون مفيد، فأصبحوا كالأنعام، ولا يرجي الإصلاح والخير من أيديهم أبداً، بل يزداد الفساد والفسق ثم ينتشر في كل مكان. ويمكن لكم الخير والصالح من مصدر وحيد فقط، وهو تقوى الله واتباع سنتي (سنة صالح) والتجنب عن صحبة هؤلاء السادة الفساق، وأنتم تعرفونني من قبل هذه الدعوة الإسلامية، بأنني لا أريد منكم جزاء ولا أجراً. وهذا هو ملخص دعوة صالح عليه السلام إلى قومه، وهذه لم تكن دعوة عقيدة فحسب، بل كانت تقصد تغيير الأحوال الاجتماعية والسياسية الجارية آنذاك".¹⁹

وإن نظرنا إلى تفسير هذه الآية في كتب التفسير الأخرى، نرى جهة أخرى غير التي رأيناها عند السيد المودودي، مثلاً قال الشيخ السعدي في

تفسيره : "وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ تَجَاوَزُوا الْحَدَّ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ" أي الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفسادا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون، لأنه شر محض وكان أناسا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم موضعون في الدعوة لسبيل الغي فنهاهم صالح عن الاغترار بهم".²⁰

فإذا توازن بين التفسيرين لنفس الآية يوجد أن تفهيم القرآن يبرز الاتجاه السياسي من مقصود الآية في مكان أن تفسير السعدي يبرز أحوال المخاطبين أمام نبي الله صالح عليه السلام، ولا يتحدث عن السياسة شيئا.

الثاني: بيان أخلاق الملوك والقيادة السياسية

إن السيد المودودي يتحدث عن أخلاق القادة السياسيين والملوك الذين لا يدينون بدين الإسلام، بل يتبعون أهواءهم، وذلك من خلال تفسير قوله تعالى: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِنَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [سورة النمل:34] فيقول: "إن هذه الجملة تقدم أمام الناس طبيعة الملوك وتأثيرهم ونتيجته بعبارة قصيرة، فإن الملوك والمستبدون إذا سيطروا على بلاد وأهله فلا يكون عندهم أي قصد مفيد لتلك البلاد وتلك الأمة المغلوبة، بل يكون قصدهم منفعة أنفسهم بما في تلك البلاد من الثروات والإمكانات، ويبذلون قسارى جهودهم لتضعيف ذلك القوم حتى لا ترفع رؤوسهم أبدا، ولذلك يغلقون عليهم جميع أبواب إمكاناتهم، ويعطلون جميع وسائلهم، ويجعلون أعزتهم أدلة، ويشنتون صفوفهم، ويبثون فيهم الخلاف والنزاع والفساد، ويكوتون فيهم جيلا لا يعرفون إلا مصالح جيوبهم وبطونهم، ويفعلون كل ما يجلب لهم الخيرات المادية، ويحقرن ثقافة أنفسهم، ويقدمون جميع أنواع القرابين للملوك المسيطرين على قومهم بثمن رخيص".²¹

فهذا التفسير التحليلي للأستاذ المودودي يصور أمام القراء صورة جلية لنشاطات الأمراء والحكام والسادة السياسية كمعاملاتهم السياسية، لأن أبعاد مفاهيم الآية تشمل على هذه الجوانب في موضوعها، وإذا نظرنا إلى تفاسير أخرى لنفس الآية وجدنا أنها تتحدث عن موضوع الآية، إلا أنها لا تبرز هذه الجوانب صريحة مثل ما أبرز السيد المودودي في تفسيره "تفهيم القرآن"، فمثلا ننظر إلى ما قال الخازن في كتابه عند تفسير الآية: "إنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَي عَنُوه أَفْسَدُوهَا أَي خربوها وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِنَةً أَي أَهَانُوا أَشْرَافَهَا وَكِبْرَافَهَا كِي يَسْتَقِيمَ لَهُمُ الْأَمْرُ تَحْذَرُهُمُ بِذَلِكَ مَسِيرَ سَلِيمَانَ إِلَيْهِمْ وَدَخُولَهُ بِلَادَهُمْ".²²

إذن رأينا الاتجاه السياسي أكثر بارزا في تفهيم القرآن مما نراه في تفسير الخازن، لأن الخازن كأنه قام بتكرار نفس الكلام القرآني بعبارة أخرى، ولكن السيد المودودي يوضح بتفصيل طبيعة السلاطين ونتيجة أفعالهم بطريقة الكلام السياسي.

الثالث: موقف الدولة الإسلامية من أهل الذمة

إن الأستاذ المودودي يفصل موقف الدولة الإسلامية ممن يسكن في داخلها من أهل الذمة، ويوضح الفرق بين الأنظمة الوضعية والأحكام الإسلامية في طريقة التعامل معهم، وذلك من خلال بيان استبداد فرعون وظلمه على بني إسرائيل الذي ينقل لنا ربنا سبحانه قائلا: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُم طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة القصص: 4] فقال السيد: إن فرعون لم ينظر إلى المواطنين نظر الإنصاف والعدل، ولم يطبق بينهم قانونا سويا، وكذلك لم يعط حقوقهم كما يستحقون، ولم يُعَمَّ في البلاد نظاما يقوي العلاقة بين أبنائه، بل اتخذ طريقة سياسية مدمرة، يشتت بها صفوفهم، ويفرقوا بها بين كلماتهم، وأعطى لبعض منهم تسهيلات وفرصا كثيرة حتى يكونوا عبادا له ومساعدين في كل ما يريد ويفعل، ويضعف الآخرين بالظلم والحرمان، وبهذا كان يريد دوام بقائه على العرش واستمرار قهره على الناس.

ثم يضيف قائلا: ومن هنا لا يمكن لأحد أن يظن بأن الدولة الإسلامية أيضا تفرق بين المسلمين وأهل الذمة في معاملتها معهم، لأنها لا تقيم المساواة بينهم عند تطبيق القانون وفي توزيع المناصب والمسؤوليات الحكومية، لأن الذميين لا يجدون فرصة للمشاركة في الحكومة الإسلامية، هذا الظن بالدولة الإسلامية خاطئ تماما، لأن القوانين الفراعنة كانت قائمة على أسس جاهلية ناشئة من مبدأ اللغة واللون والقبيلة، بينما أن الإسلام أسس نظامه على الدين والعقيدة، فلا سبيل للتفرقة بين الناس في الدولة الإسلامية في تأمين حقوقهم، نعم، فرقت الدولة الإسلامية فيما بينهم في الحقوق السياسية فقط، لأن الدولة الإسلامية يحكمها أهل التوحيد الذين يعرفون القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويستنبطون القوانين منهما، والكل يعرف بأن أهل الذمة لا يستطيعون على ذلك، ولا يعرفون من الدين شيئا، فلذا لا يمكن لهم الوصول إلى السلطة في الدولة الإسلامية طبعاً.²³

وإذا قارنا بين ما سبق من تفسير الأستاذ المودودي وبين التفاسير الأخرى لنفس الآية لوجدنا هناك فرقا كبيرا في إظهار مفاهيم الآية، ونرى الإمام البغوي يقول في معالم التنزيل: " {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا} استكبر وتجبّر وتعظم

{في الأرض} أرض مصر {وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا} فِرْقًا وأصنافًا في الخدمة والتسخير {يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ} أراد بالطائفة: بني إسرائيل ثم فسّر الاستضعاف فقال: {يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ} سمي هذا استضعافاً لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم {إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}.²⁴ وقد يتضح أمام القراء أن الإمام البيهقي يفسر الآية ويبرز منها المحذوف الذي يحتاجون إليه لفهم مرادها، وذلك بعد ذكر جزء الآية، ولكنه لم يدخل في مجال الأمور التي تتعلق بالسياسة مباشرة، ولم يسق الكلام عن أهل الذمة، ونظام تعامل الحاكم معهم، وموقف الدولة عن الذميين، ولكننا رأينا هذه الأمور المذكورة في تفسير "تفهيم القرآن"، فالأستاذ المودودي ذكر أحوال الذميين في دار الإسلام مفصلاً وعلاقتهم بها، ولا شك أنها من الأمور السياسية مباشرة.

الرابع: طلب الولاية الكبرى وفرصة المشاركة في النشاطات السياسية
إن الأستاذ المودودي يرى أن طلب الولاية الكبرى أو قوة السلطة والمشاركة في الأعمال السياسية جازز لإقامة دين الله تعالى على الأرض، وإعلاء كلمة الله على جميع الأديان الباطلة، بل يرى ممدوحاً، وفي بعض الأحيان يكون ضرورياً أيضاً، وهذا يوجب المشاركة في الأعمال السياسية، ومن الممكن أن الأستاذ المودودي يعتقد بهذا الاعتقاد معتمداً على قول الله سبحانه: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [سورة الشورى: 13]، وإقامة الدين بجميع أحكامه لا يمكن إلا بقوة سياسية، والأستاذ المودودي يتكلم عن ذلك من خلال تفسيره قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} [سورة الإسراء: 80] قائلاً: "يعني اجعلني سلطاناً، أو اجعل لي حاكماً يساعدني في سبيل إصلاح مجتمع فاسد، وإقامة نظام الإسلام في الأرض، وهذا هو التفسير المعتمد عند الحسن البصري وقتادة،²⁵ وهو الذي فسّر به الإمام ابن جرير الطبري وابن كثير في كتبهم، وهذا الذي يقويه قول عمر رضي الله عنه: "إن الله ليُزَعَّ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".²⁶ ومن هنا يتضح بأن الإصلاح الذي يريده الإسلام في الدنيا لا يمكن بمجرد الوعظ والنصيحة، بل هو يحتاج إلى قوة سياسية في جانب ومن جانب آخر أن الله سبحانه وتعالى علم نبيه الدعاء لطلب القوة والسلطة، فهو دليل على إباحة طلب القوة الحاكمة وبذل الجهود للحصول عليها، فالذين يرون هذه المحاولات السياسية من أعمال الدين ولا علاقة لها بالإسلام، ومن هنا فهي

غير جائزة في نظر الإسلام، فهم في خطأ واضح، لأن النشاطات السياسية إما تكون لمصالح شخصية دنيوية وإما تكون لمصالح دينية، فالأولى غير مرجوة في ساحة الإسلام، والثانية تعتبر من أهم أمور الإسلام.²⁷ لقد رأينا أن الأستاذ المودودي نفسه أشار إلى كبار الأئمة الكرام من المفسرين بأنهم أخذوا للآية نفس التفسير الذي بينه هو، ولكن الناظر الدقيق يرى أن الأستاذ المودودي أوضح الأمر بدرجة لم تصل إليها تفسيرات هؤلاء المفسرين الكرام، فمثلاً ننظر إلى ما قال الإمام ابن كثير في تفسيره: "قوله: { وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا } قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزع ملك فارس، وعز فارس، وليجعلنه له، وملك الروم، وعز الروم، وليجعلنه له.²⁸

وقال قتادة فيها: إن نبي الله صلى الله عليه وسلم علم ألا طاقة له بهذا الأمر إلا بسطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم. قال مجاهد: { سُلْطَانًا نَصِيرًا } حجة بينة. واختار ابن جرير قول الحسن وكتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه.²⁹

نعم، إن ابن كثير ذكر أقوال العلماء من ابن جرير الطبري وكتادة ومجاهد في تفسير هذه الآية فهم اعتبروا من السلطان النصير الحاكم العادل الذي يكون مساعداً في إقامة دين الله وشريعته في الأرض، ولكن الأستاذ المودودي تحدث عن الأعمال السياسية والمشاركة فيها، وحكمها في نظر الإسلام، وهو يبدي رأيه موضحاً في الموضوع، وهذا الجانب غير موجود في التفاسير المذكورة.

الخامس: إثبات السلطة المطلقة لله تعالى فقط

إننا نرى الأستاذ المودودي يفصل الكلام في إثبات السلطة المطلقة لله تعالى، وهو يوضح بأن الكلام المركزي للسياسة هو القدرة المطلقة، وحقيقة جميع النشاطات السياسية سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية تدور حول الحكومة والسلطة، فلذا نراه يحاول لأن يشعر قراءه بأن العبادة ليست أمراً دينياً فقط، بل هي تتعلق مع هذه بالأمور السياسية أيضاً تعلقاً وثيقاً، وذلك من خلال تفسيره قوله تعالى: { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } [سورة الإسراء: 23] فيقول الأستاذ المودودي: ليس المراد من هذه الآية المنع عن العبادة الدينية لغير الله تعالى فقط، بل المراد منها أن العبادة والإطاعة المطلقة تكون لله فقط، ويجب على الإنسان التحاكم إلى الله واتباع

قوانينه، ونبذ اتباع قانون غير الله والإنكار عليه إنكاراً شديداً، فهذا لا يعني الاعتقاد الديني فحسب، ولا الإرشاد إلى الأمور التي تتعلق بحياة الفرد فقط، بل هو يشمل على جميع النشاطات التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة من الأمور السياسية والاجتماعية، التي كانت قائمة على أساس بأن الله هو الملك المهيمن الذي له جميع القوى المطلقة، فيجب على الجميع الخضوع أمام أنظمتهم وقوانينهم.³⁰

فإن أمعنا النظر إلى تفسير الأستاذ المودودي نرى أنه قد مال إلى الخوض في إبراز الاتجاه السياسي من الآية المذكورة، ولكن السياق في الآية لا يتحدث عن السياسة مباشرة، بل يتحدث عن العبادة، وعن معاملة الإنسان مع الوالدين والأقربين، ونحن نرى هذا الاتجاه غالباً في كتب التفسير الأخرى، فمثلاً نرى الشيخ السعدي يفسر نفس الآية قائلاً: "لما نهى تعالى عن الشرك به أمر بالتوحيد فقال: {وقضى ربك} قضاء دينياً وأمر أمراً شرعياً {أن لا تعبدوا} أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات {إلا إياه} لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي له جميع الصفات الكمالية، وله من تلك الصفات أعظمها على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعمة الظاهرة والباطنة الدافع لجميع النقم الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور فهو المتفرد بذلك كله وغيره ليس له من ذلك شيء. ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين".³¹

ويقول الشيخ حافظ الدين النسفي في تفسير الآية نفسها: " {وقضى ربك} وأمر أمراً مقطوعاً به {الألّا تعبدوا إلا إياه} أن مفسرة ولا تعبدوا نهى أو بأن لا تعبدوا {وبالوالدين إحساناً} وأحسنوا".³² فهذان التفسيران يقدمان للقراء اتجاهها دينياً خالصاً من العبادة وبر الوالدين، لا يتعلق بأمور السياسة تماماً، لا من قريب ولا من بعيد، ولا يحس القارئ بعد قراءة هذين التفسيرين أي ميلان إلى السياسة، بل يرى محاولة إيضاح المعنى والمراد من الآية بإضافة بعض الكلمات، بينما أن الأستاذ المودودي جعله أمراً سياسياً خالصاً، وهذا هو موقفه من السياسة عند تفسير القرآن الكريم.

الخاتمة

قد وصلنا من خلال دراستنا هذه إلى النتائج التالية: السياسة من أهم الأمور لكونها متعلقة بالحكام والحكومة، وبدون قوة سياسية لا يكون شأن الإسلام قويا ومتيناً، ولا يمكن إقامة العدل والإنصاف والحقوق والمساواة بين الناس.

قد ذكر في القرآن الكريم كثيرا من مصطلحات سياسية، مثل "الملك" و "الخلافة" و "السلطان" و "الحكم" و "البيعة" وما إلى ذلك من المصطلحات، وهذا يبرز جانب اهتمام القرآن الكريم بالسياسة. وقد أثبت الأستاذ المودودي أن السلطة المطلقة في جميع الأمور لله فقط، وهذا مع إحاطة الجوانب السياسية حتى أحوال أهل الذمة في الدولة الإسلامية. وهو يرى جواز طلب الولاية الكبرى وفرصة المشاركة في الأفعال السياسية عند مصلحة الإسلام والمسلمين خاصة وعند مصلحة الناس عامة، كما طلبها النبي صلى الله عليه وسلم من ربه.

وقد تحدث الأستاذ المودودي مفصلا عن انقلاب كامل للمجتمع الراهن من الطابع الجاهلي إلى الطابع الإسلامي، وتغير تام لأخلاق القادة السياسيين من جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن جهل الضلالة إلى بصيرة الهداية، لأنها مقصد من مقاصد القرآن الكريم. نسأل الله العلي العظيم أن يجعل هذا البحث المتواضع في ميزان حسنات المفسر خاصة ولنا عامة إنه ولي التوفيق.

المصادر والمراجع:

- 1- الصالح، الدكتور مصلح، (1420هـ) الشامل- قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، (إنجليزي -عربي) (الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى) ص404.
- 2- المصدر السابق.
- 3- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية (1427 هـ) الموسوعة الفقهية الكويتية (الكويت: الطبعة الثانية، دار السلاسل) ج52، ص294.
- 4- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الواسطي (1888م) تاج العروس من جواهر القاموس، (مصر: المطبعة الخيرية، الطبعة بدون تاريخ) ج16، ص157، نقل عن: النظام السياسي في ضوء القرآن الكريم، محمد فاروق محمد بهاش، (رسالة ماجستير، جامعة غزة)
- 5- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الموسوعة الفقهية الكويتية، ج52، ص294.
- 6- المصدر نفسه، ج25، ص295.
- 7- المصدر نفسه.
- 8- سورة محمد بدأت بذكر أحوال الكفار في مكة وحولها، وكانت الحالة فوضى بين المسلمين وبين الكفار، ودار الكلام من الآية الأولى إلى الحادية عشرة حول هذه القضية، كأن الله سبحانه وتعالى أعلن الحرب وأمر المسلمين بقتال الكفار، حتى نرى الإمام ابن كثير يفسرها بقوله: "تفسير سورة القتال" [، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي،

- (1420هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية) ج7، ص306.]
- 9- أحمد يوسف، (1990م) *النظام السياسي مفاهيم ومواقف*، (المؤسسة المتحدة للدراسة والبحوث، الطبعة الأولى) ص73، نقلا عن: *النظام السياسي في ضوء القرآن الكريم*، المصدر السابق، ص11. [وكل من يقف على تاريخ صلح الحديبية يعرف أنه كان خلاف مصلحة المسلمين آنذاك، وكان في قلوبهم حزن إلا أنهم اتبعوه، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، رغم أن عمر تكلم بكلماته التاريخية قائلا: "ألصنا على الحق وهم على الباطل أليس قتالنا في الجنة وقتلاهم في النار قال (النبي صلى الله عليه وسلم) بلى قال فقيم أعطي (نعطي) الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا فقال يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا فرجع متغيظا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال يا أبا بكر ألصنا على الحق وهم على الباطل قال يا ابن الخطاب إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا فنزلت سورة الفتح"] البخاري، أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم الجعفي، (1989م) *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه*، (نسخة طوق النجاة) الطبعة الرابعة، بيروت، مؤسسة الرسالة، رقم الحديث: ج1، ص296، رقم الحديث: 4844.
- ¹⁰- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (1420هـ) *تفسير القرآن العظيم*، المحقق: سامي بن محمد سلامة، (دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية) ج8، ص28.
- 11- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (1412هـ) *المفردات في غريب القرآن*، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، (دمشق بيروت، دار القلم، الطبعة الأولى) ج1، ص472، والفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر نوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي)، ج4، ص420.
- 12- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (1425هـ) *مقدمة ابن خلدون* (بيروت: المكتبة العصرية صيدا، الطبعة الأولى) ص176،
- 13- أبو منصور الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، (2005م) *تفسير الماتريدي* (تأويلات أهل السنة) تحقيق الدكتور مجدي باسلوم (بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى) ج2، ص223.
- 14- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد، (1997م) *لسان العرب*، (دار صادر: الطبعة الأولى) مادة: "حكم" ج12، ص164. وابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (1986م) *مجلد اللغة*، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية) ج1، ص246.
- 15- ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص30، والزبيدي (1888م) *تاج العروس من جواهر القاموس*، ج30، ص370، وأبو القاسم، إسماعيل بن عباد (1994م) *المحيط في اللغة*، تحقيق: محمد حسن آل ياسين (بيروت: عالم الكتب، الطبعة الأولى) ج2، ص177.

- 16- قلنجي، محمد رواس (1406هـ) موسوعة فقه عبد الله بن عمر، (بيروت: دار النفائس، الطبعة الأولى) ص201.
- 17- الجوهرى، إسماعيل بن حماد (1990م) *الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية*، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار (دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة) ج4، ص1356، و ابن منظور، *لسان العرب*، ج9، ص102.
- 18- ولد الأستاذ أبو الأعلى المودودي رحمه الله في 3 رجب سنة 1321هـ في أورنج آباد في مقاطعة حيدرآباد الدكهين التي معروفة الآن بـ"أندر براديش". وكان اسم أبيه السيد أحمد حسن المودودي وأمه رقية بيغم. تفتحت عيناه في أسرة غلب عليها الطابع الديني، ونتج عنها أثر كبير ورسم على قلبه معالم دينية عميقة. وكان الأستاذ من أنساب علي وفاطمة رضي الله عنهما، ولقبت أسرته بالمودودية نسبة إلى قطب الدين المودود جشتي (المتوفى 527هـ) الذي مؤسس للطريقة الجشتية في القارة الهندية. ويعد أبو الأعلى المودودي نموذجاً فريداً للداعية الإسلامي المجتهد الذي أوقف حياته على الدعوة إلى الإسلام، وجعل رسالته في الحياة إعلاء كلمة الحق، والتمكين للإسلام في قلوب اتباعه قبل ربوعه وأوطانه. وقد توفي الأستاذ المودودي رحمه الله في 22 ديسمبر سنة 1979م. (نقلا عن: عباس علي خان، مولانا مودودي إكتي جيبون إكتي أندولون مولانا مودودي : حياة وتاريخ) ط4، قسم شؤون الطباعة والنشر المركزي للجماعة الإسلامية بنغلاديش، دكا، سنة: 1997م، ص25).
- 19- المودودي، السيد أبو الأعلى، (2003م) *تفهيم القرآن*، (داكا: أدونيك بروكاشون، الطبعة الخامسة) ج10، ص116.
- 20- السعدي، أبو عبد الله عبد الرحمن ناصر بن السعدي، (1420هـ)، *تيسير كريم الرحمن في تفسير كلام المنان*، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويح، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج1، ص596.
- 21- المودودي، *تفهيم القرآن*، ج10، ص174-175.
- 22- الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشحيحي أبو الحسن، (1415هـ) *لياب التأويل في معاني التنزيل*، تصحيح: محمد علي شاهين (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى) ج3، ص344.
- 23- المودودي، *تفهيم القرآن*، ج10، ص221.
- 24- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، (1417هـ) *معالم التنزيل*، تحقيق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة)، ج6، ص185.
- 25- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، (1425هـ) *مقاصد الشريعة الإسلامية*، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة بدون تاريخ) ج3، ص354. و ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني (1426هـ) *مجموع الفتاوى*، المحقق: أنور الباز - عامر الجزار، (دار الوفاء، الطبعة الثالثة)، ج11، ص416.

-
- ²⁶- ابن عبد البر، *التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد* (المغرب، وزارة الأوقاف، سنة: 1433 هـ، الطبعة الثانية) ج 1، رقم الحديث: 177.
- 27- المودودي، *تفهيم القرآن*، ج 7، ص 159-160.
- 28- ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، ج 5، ص 111.
- ²⁹-المصدر نفسه، ج 5، ص 111.
- ³⁰- المودودي، *تفهيم القرآن*، ج 7، ص 126.
- ³¹- السعدي، *تيسير كريم الرحمن في تفسير كلام المنان*، ج 1، ص 456.
- 32- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (1998 م) *تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)* تحقيق: يوسف علي بديوي (بيروت: دار الكلم الطيب، الطبعة الأولى) ج 2، ص 251.